بين المدرسة والبيت

●

تمتاز السنوات التي يصرفها الطلاب في المدرسة عن غيرها من سني الحياة بوضوح الغاية وانسجام السعي . فمنهم من يؤمها من تلقاء نفسه ومنهم يرسله والداه اليها لطلب العلم ونيل الشهادة . وإن انحرف احدهم يوماً عن غايته المفروضة هب المعلم الى تذكيره ، وان تقاعس عن بذل قصارى جهده سعيا في سبيلها وجد من علاماته الشهرية ما يستفزه . وهنالك وسائل اخرى للتذكير قد تلجأ اليها المدرسة لحفظ الغاية نصب اعين التلاميذ ولحصر جهودهم كلها في تحقيقها . وهي وان اختلفت في مظاهرها تتفق فيما تستهدفه من تزويدهم بما يحتاجون اليه في معترك الحياة . فالحياة المدرسية بقوانينها ونظمها ودروسها والعابها تبتغي توحيد قوى التلاميذ وتنظيم مساعيهم ، اختياراً ان أمكن وقسراً اذا اقتضى الامر .

اما خارج المدرسة فقد تنعدم امامهم الغاية ويتلاشى الانسجام . فسرعان ما يدخلون معترك الحياة حتى تتقاذفهم الاهواء والمذاهب وتتنازعهم الاهداف والغايات ، مع ان حاجتهم العظمى هي غاية واضحة ثابتة توحد قوى انفسهم وتعطي حياتهم معنى وحقيقة . وقد يصعب عليهم في حياتهم العملية ان يحتفظوا بما اكتسبوه في المدرسة

obeikandi.com

من روح التعاون والنظام . وعندي ان معظم آفات مجتمعنا العربي يعود الى ما ذكرته من فقدان الغاية الواضحة لدى الفرد وعدم مقدرته على التعاون في معاملاته ونقص في استعداده لالتزام النظام في اعماله .

ولنا ان نتساءل : الى اي حد يستطيع الطالب بعد خروجه من المدرسة ان يحتفظ ببعض ماتعوده فيها من نظام ،وان يستهدف في حياته العملية ، مختاراً ، غاية واضحة معينة لاينحرف عنها مهما علت امامه امواج المصالح الشخصية وارتفعت في طريقه عقبات التقاليد العائلية وعصفت بشراعه الرياح الصفراء .

على كل طالب ان يجيب على هذا السؤال بنفسه . ويجدر به قبل الاقدام على ذلك ان يتحقق من امرين : ما هي الحياة التي تنتظره خارج المدرسة وما يريد ان يقوم به فيها من الاعمال .

يتخبط العالم اليوم في بحر من الفوضى هائج بامواج الشك والخوف ،فشلت دماء ضحايا الحرب العالمية الثانية في محاولة تهدئتها كما فشل ساسة العالم ان ينتشلوه من اليم ويقتادوه الى شواطىء السلامة . وان نظرة واحدة الى انحاء المعمور تؤكد لنا ان رحى الحرب لم تقف بعد ، وأن السلم الذي نرتجيه لايزال بعيداً ،وحمامة نوح لم تجد بعد محطاً على وجه البسيطة . وكيف يستتب سلم أو يسود والخوف مخيم على مشارق الارض ومغاربها والشك مستولٍ على قلوب الناس واليأس يكتنفهم من كل صوب . فمن الناحية المادية ستقضي المجاعة في الشتاء القادم على عشرين مليوناً من الناس في اوروبا وحدها وعلى عشرين مليوناً أخرى في الهند وعشرة ملايين

في الصين . ومن الناحيـــة السياسية لاترى الاّ مؤتمرات فاشلة ومشاورات دبلوماسية لا غاية لها الا الاستئثار بالقوة والسلطات والاحتفاظ بالمصالح الاستعمارية تحت ستار الوصايات طورا وتحت ستار المعاهدات طورا آخر واساءة الجوار واكل القوي منهم الضعيف . ومن الناحية الروحية لانلمس الاّ الافلاس والفشل. وقد يقوى الانسان على تحمل هذه واكثر لو تراءى له في الافق بارقة امل او رجاء . أما اذا انقطع الامـــل وتلاشى الرجاء فتنعدم الارادة للحياة .

واليوم لا يكاد الانسان يجد في طول الارض وعرضها أملا يسعى اليه او بارقة رجاء يعيش بها ولها .

واذا حصرنا النظر في الشرق العربي – شرقنا الذي نعيش فيه والذي يجب ان نعيش له – نراه لايختلف كثيراً من حيث الفوضى التي يتخبط فيها والخوف الذي يستولي عليه واليأس الذي يكتنفه.

زد على ذلك تبلبل الالسنة ، وتضارب الآراء الهدامـــة ، وفساد الاخلاق الفردية والاجتماعية ، والتكالب عـلى الوظيفة ، وانتشار الرشوة ، واختلاس اموال الشعب، وفساد الحالة الاقتصادية والعراك القائم بين الشركات المحتكرة والعمال المرهقين ، وتسلط الامية على سواد الامة ، وعدم المبالاة بهذه المشاكل والوقوف منها وقفة المتفرج دون الاقدام على معالجتها ، والتوكل على الاجنبي في حلها ، وتغلغل التعصب الديني في النفوس ، واستعمال الطائفية اداة للسياسة والحكم ، وانعدام الوعي القومي الصحيح ، وقيام الحركة العربية على الاشخاص والعائلات دون الشعب .

وماذا ينتظر الطالب في بلده وبيته ، بين ذوي القربى والاصدقاء ، والاصحاب والمعارف والاعداء .

سيستقبله ذووه بالترحاب وسيؤهلون به ويقيمون المآدب والحفلات . وسيتوافد اهل البلد للسلام والتهنئة . وما ان تتلاشى اصوات المرحبين وتخمد ، وتهدأ زوايا البيت بأهله ، حتى يرتفع شبح الضجر والملل تتبعه جيوش اليأس والفشل. فيكتشف الطالب انه قد انتقل من عالم الى آخر – من عالم المدرسة الخيالي المملوء بالبشر والآمال الى عالم البيت الواقعي المفعم بالمتاعب والاكدار . وستكون الصدمة شديدة لانه سيجد تفاوتاً عظيما وتبايناً بين المحيط المدرسي الذي تعوده والمحيط البيتي الذي نسيه . فالترتيب الذي يسود المدرسة والنظام والالفة والصداقة وروح الاخذ والعطاء والتعاون – كل هذه ستتلاشى امام اضدادها ، فتحل الفوضى محل الترتيب والنظام ، والمشاحنة محل الالفة ، والعداء محل الصداقة ، والانانية محل روح الاخذ والعطاء والبذل ، والفردية محل التعاون . وسيعجز والداه وذووه ، على محبتهم له ، عن فهمه ، وسيحاول الاصدقاء ان يصرفوه عن مبادئه ومثله العليا بحجة السهر على مصالحه ، وستسخر به فئة وستهزأ به اخرى .

فالتفاوت بين المحيط المدرسي الذي الفه الطالب والمحيط البيتي الذي يعود اليه هو الواقع الحقيقي الذي يجابهه . وارجو ان يكون الواقع الحقيقي الذي سيستفزه .

امام الطالب لقاء هذا التفاوت ثلاثة سبل للعمل – لا بل سبيلان للعمل وثالث للسكينة . له ألاّ يبالي بهذه المشكلة وان

يتعامى عنها وينكر وجودها فلا يصغي الى ما تناديه اليه ، ويعود بالتدريج الى عيشة القناعة والاتباع يجاري الواقع مهما كان فاسداً ، مثله في ذلك مثل الروح النجس عندما يخرج من الانسان « يجتاز في اماكن فيها ماء يطلب راحة ، واذ لا يجد يقول: اعود الى بيتي الذي خرجت منه . فيأتي ويجده مكنوساً مزيناً . ثم يذهب ويأخذ سبعة ارواح أخر أشرّ منه فتدخل وتسكن هناك . فتصير اواخر ذلك الانسان شراً من اوائـــله . » وهذا هو السبيل الذي يتبعه اكثر الشباب عند خروجهم من المدرسة وعودتهم الى بيوتهم . فتذهب السنوات التي قضوها في التعليم سدى ، وتضيع جهودهم التي بذلوها بلا جدوى ، وتفقد الاموال التي صرفها آباؤهم عليهم بدون فائدة . أما ما علقه عليهم الوطن من آمال فمصيره مصير ندائف الثلج على وجه المياه - تكاد لا تسقط على اليم حتى تذوب وتصبح أثراً بعد عين .

وللطالب ان يخرج على المحيط البيتي ويثور على التقاليد العائلية والاجتماعية التي ستفرض عليه . ولن تتعدى قيمة عمله هذا سوى ارضاء ضميره وصرف ذويه عن ارسال غيره من ابنائهم الى المدارس لئلا يقتفوا اثره ويخرجوا على التقاليد المستقرة والعادات المتبعة . وانا افضل هذا السبيل على سبيل القناعة والاتباع ، لانه يمثل عملا ما ، والعمل خير من السكينة والركود .

اما السبيل الثالث المفتوح امام الطالب فهو اصعب السبل واوعرها ، وهو ايضاً اعظمها فائدة ونفعاً . وهو يتطلب منه ان يكيف محيطه البيتي حتى يتفق مع محيطه المدرسي المثالي ويتلاشى

التفاوت بينهما .

واجب الطالب الاول اذاً ان يوفق بين المحيطين – محيط المدرسة ومحيط البيت – وان يكيف الواقع حتى يستوي مع المثال. هذه هي الغاية التي يجب ان يضعها نصب عينيه لتكون له هدفاً بدل الهدف المؤقت الذي رسم له في المدرسة . وهذه هي الغاية التي ستعطي حياته معنى وحقيقة . فهل يستطيع الطالب العربي يا ترى ان يسعى نحو هذه الغاية بمثل الجد الذي بذل في سعيه نحو غايته المدرسية ، وبمثل النظام الذي اتبع في سبيلها ، وبمثل روح الاخذ والعطاء والتعاون التي سار عليها في اثناء وجوده في المدرسة ؟

من الطلاب من سيتابع دراسته فيؤجل يوم الحساب سنوات قليلة . لان التفاوت بين المحيط البيتي يعترض خريجي الكليات والجامعات كما يعترض خريجي المدارس الثانوية والتوجيهية . ومنهم من سيدخل معترك الحياة على الفور . وسيكتشف حال دخوله هذا ان كثيراً من الامور التي تعوّدها في المدرسة ستمنع عنه على الارجح ،وان عدداً من الحريات التي تمتع بها في اثناء سنوات العمل المدرسية ستنتزع منه . وسيفرض عليه محيطه الجديد قيوداً لم تكن في الحسبان ، وسيقيم امامه عقبات لم تخطر له على بال . وستمتحن نتائج السنوات التي قضاها في المدرسة وتقاس بمقدرته على تكييف نفسه في وسط هذه الظروف بدون معاداة محيطه ان امكن ، وفي الوقت نفسه بدون التخلي عن مبادئه المكتسبة في المدرسة أو الانحراف عنها مهما تعاظمت التجارب واشتدت المحن .

ان البلاد العربية تعلق آمالها على النشء الجديد لا على الآباء .

وماذا أقول عن الآباء سوى ما قاله الامام علي (معكوساً) من انهم خلقوا لجيل غير الجيل الذي خلق ابناؤهم له . والجيل القديم والجيل الجديد يدان كل منهما على السواء باعماله . واعمال الجيل القديم واضحة . ففي السياسة والحكم اعادوا لنا عهد عثمان بن عفان مع ان حاجتنا الى عهد الفاروق اشد ، واتبعوا خطته في اسناد الوظائف واستبدلوا بالكفاءة المحسوبية والقربى . وفي التجارة اعادوا لنا عهد امير حلب في ايام ابن حوقل[1] .

هذه سنة الجلاء في الاقطار العربية . وانا اهنيء العرب بسنة الفتح هذه وآمل ان يتبع هذا الجلاء جلاء آخر جلاء الجيل القديم المدان باعماله . فيفسح المجال للجيل الجديد ـ محط آمال العرب .

ان مشكلة التفاوت والتباين بين محيط المدرسة المثالي ومحيط البيت الواقعي مشكلة ملموسة تعترض سبيل كل طالب عائد الى بيته وبلده . وهي تتطلب حلا ناجعاً عاجلا . وعلى كل طالب ان يجابه هذه المشكلة بالهمة والنشاط اللذين جابه بهما مشاكله في ايام دراسته وبالنظام والترتيب اللذين اتبعهما في القيام بواجباته اليومية في اثنائها . وباعمالنا ندان .

---

(١) راجع ابن حوقل ـ « كتاب صورة الارض » (ليدن ١٩٣٨) جزء ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ حيث يقول « ـ اذا وردها متاع من خسيس ونفيس اشتراه من جالبها وباعه هو لاهلها على اقبح صورة واخس جهة وما يستثار بها من خل وصابون فهو يعمله ويبيعه وليس بها مبيع ولا مشترى الا وله فيها مدخل قبيح » .